أن الآداب المتأخرة تنافس ـ مع الأسف ـ أطوارا أعلى منها وأصح ، أى أن البلاغة العربية فى رأى الاستاذ العقاد قامت بوظيفة غريبة أقرب الى تحسين مانراه قبيحا ، أو الدفاع عنه بطريقة ملحة ، ولكنها بعد ذلك لاتخلو من مضرة ظلت غير واضحة الخطر قرونا وأجيالا ، وهنا يأتى فضل الأستاذ العقاد ، فقد قدم فى تاريخ نهضة الأدب والبلاغة فصلا من أهم الفصول ، وليس أدل على أن البلاغة العربية أهملت عبقرية الشعر العربى ، كما أهملها النقد النظرى القديم ، من أن التوقد الذى تمتاز به الصرخات الحسية والومضات المحصورة لم ينل فضل تحليل أو تنوير ، والأستاذ العقاد يشير الى هذا التوقد .

ومن المؤكد أن كل مالدينا من آثار النقد والبلاغة لايحسن التمييز بين العواطف الساذجة فى غير تركيب ولا تنويع والعواطف المنوعة المتشابكة ، والقارىء العربى محتاج الى هذه العواطف التى تتولد من قدم الحضارة وكثرة اختبار النفوس للنفوس فى مختلف الأحوال والأطوار ، لم تستطع البلاغة أن تميز العواطف المركبة التى تأتى من تركيب العلاقات بين الناس فى بيئات الحضارة ، ليس فى البلاغة العربية تصوير لغير العلاقات الفردية المفتوحة ، وليس لدينا تصور لتأثير التكاليف المدنية فى إنشاء علاقات ولباقات وآداب تترقى بصناعة المدح من السذاجة الى شىء من التفنن والتنويع ، عبقرية الشعر العربى ماتزال غامضة ، فإذا زعمنا أن الأبيات العربية طفرة بعد طفرة فما جمال هذه الطفرة ؟ وما الذى يجعلنا نعشقها ، لانستغنى عنها بعلاقات أشبه بموجة تدخل فى موجة ، لاتنفصل من التيار المتسلسل الفياض ؟ لم تستطع البلاغة العربية أن تعنى بالسوانح التى تتعدد فيها الظلال والجوانب والدرجات .

لم يشك الأستاذ العقاد فى أن تراث تقويم الشعر عاجز عن أن ينهض بالواجب المفروض فى عصر النهضة والانبعاث . والحقيقة أن الأستاذ العقاد أدرك أن الواجب الملقى على الدعاة الجدد واجب ثقيل ، فالمسافة التى تفصل الأستاذ العقاد من عامة القراء واسعة مذهلة ، والحساسية الجديدة التى يدعو اليها دونها عقبات راسخة موروثة ، وهذا هو الذى جعل جهاد العقاد قليل التأثير مع الأسف الشديد ، وكان من السهل اتهام الاستاذ العقاد بالغموض والتعسف والتحيز ، والحقيقة هى أن رؤية الأستاذ العقاد كانت سابقة لعصره من بعض الوجوه ، وكان تذليل العصر من الصعوبة بمكان ، ولكن الذين تفتنهم بعض التحليلات اللغوية الآن خليقون بقراءة العقاد ، فقد كان يعبر